

حكمة سيبويه في ترتيب أبواب الكتاب - موضوعات النحو -

Sibawayh's wisdom in arranging the chapters of the book - grammar topics -

وهيبة بوشليق¹¹ جامعة محمد بوضياف المسيلة،ouahiba.bouchelig@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2024/09/14 تاريخ القبول: 2024/10/17 تاريخ النشر: 2024/12/25

ملخص:

نتناول في هذا البحث مسألة ترتيب أبواب "الكتاب" لسيبويه، وهو يهدف إلى إبراز عبقرية سيبويه في طريقة تأليفه للكتاب وتنظيم أبوابه، وقد تطرقنا إلى ما يثبت وجود نسق ونظام في ترتيب الأبواب وآراء الباحثين في ذلك، وعرضنا الرأي المناقض مع أدلته، وقد توصلنا إلى أنه يوجد فعلاً قصد وحكمة من وراء ترتيب أبواب الكتاب على النسق الذي أتت عليه.

الكلمات المفتاحية: سيبويه، الكتاب، أبواب، ترتيب

Abstract:

In this research, we address the issue of arranging the chapters of "Alkitab" by Sibawayh. It aims to highlight Sibawayh's genius in the way he wrote the book and organized its chapters. We have discussed what proves the existence of a pattern and system in arranging the chapters and the opinions of researchers on that, and we presented the opposing opinion with its evidence, and we have arrived at There is actually intention and wisdom behind arranging the chapters of the book in the manner in which they are presented.

Keywords: Sibawayh, alkitab, chapters, arrangement.

المؤلف المرسل: وهيبة بوشليق، الإيميل: ouahiba.bouchelig@univ-msila.dz

1. مقدمة:

يعرف الكتاب لسيبويه (ت180 هـ) أنه أضخم كتاب يصل إلينا في النحو العربي، وقد ضمّ عدّة من علوم العربية، كالنحو والصرف والأصوات، وغيرها، وعلى الأرجح أنها جمعت كل ما توصّل إليه العلماء ممن سبقوا سيبويه، خاصّة ما حصّله عن أستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)، الذي كان عبقرّيّ زمانه، ومما يوصف به الكتاب قديما وحديثا أنه ذو تنظيم محكم، وذو علم غزير، وعدّه المحدثون بمثابة الموسوعة العلمية التي لم يستطع أن يستغني عنها عالم ممن جاؤوا بعد سيبويه إلى الآن، في النحو واللغة والفقه والتفسير، حتّى لقّب بقرآن النحو.

وقد تضاربت الآراء حول المنهجية التي جمع بها سيبويه أبواب كتابه، من حيث أن هناك منهجا واضحا في ترتيب تلك الأبواب، أو غيابه.

فهل ياترى ترتيب أبواب الكتاب خاضعة لحكمة ومغزى وقصد؟ هل هناك منهج مقصود اتّبعه سيبويه؟ أم أن ترتيبه جاء عن غير قصد؟

سنتناول في هذه المداخلة عرضا نقّدم فيه الطريقة التي اعتمدها سيبويه في تناول مباحث الكتاب النحوية دون غيرها، لنستبع أثر المنهجية العلمية، والحكمة المنطقية التي يتمتع بها هذا العالم الفذ في عرضه لأبواب علم جليل القدر، عظيم الفائدة. ونكشف عن عبقرّيته في استنباط العلائق بين موضوعات النحو الكثيرة والمتشعبة.

الطبعة التي اعتمدت عليها صادرة عن دار الكتب العلمية، ببيروت، من تحقيق إميل بديع يعقوب، الطبعة الثانية، صادرة سنة 2009.

2. أهمية الكتاب

كتاب سيبويه موسوعة علمية تراثية ضخمة لم يسبقه إلى تأليفها في علم النحو وعلوم اللغة أحد قط، وقد نقلت لنا كتب التراجم والطبقات روايات كثيرة تشيد بالكتاب وتقّدسه بين حلقات العلم والطلاب على مرّ العصور التي تلت تأليفه حتّى لقّب بقرآن النحو؛ فهذا صاحب الفهرست يذكر أنّ أبا العباس المبرّد (ت385هـ)، كان إذا أراد أن يقرأ عليه إنسان كتاب سيبويه يقول له: "هل ركب البحر؟ تعظيما له واستعظاما لما فيه، وكان المازني يقول من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي¹.

يقول علي التّجدي عن الكتاب: «هذا هو السفر العظيم، الذي أقامه العالم الجليل في ساحة الخلود أثراً، وأرسله مع الأيام ذكراً، وادخره للعربية كنزاً، وندبه في العالمين شاهداً على براعته فيها، ونفاذه إلى أسرارها، وإمامته في الاشتراع لها، وضبط أصولها، على نحو يعزّ نظيره في الأوّلين والآخرين، شمول إحاطة، وبراعة أستاذية، وسلامة تحليل، وصدق نظر، وصحّة حكم»².

ونوّه محمد مختار ولد أباه بالكتاب على أنّه موسوعة في النحو والصّرف واللغة؛ أوحّت للذين جاؤوا من بعده أن يسيروا في طرق متنوّعة، ومرتكزاً يستمدّون منه ما يريدون، حتّى أن الجرمي ذكر أنه ظلّ ثلاثين سنة يفتي في الفقه من كتاب سيويه³.

3. ملامح عبقرية سيويه في تنظيم أبواب الكتاب:

قضية تنظيم أبواب الكتاب على نسق معيّن فيه حكمة في ترتيبه من عدمها جعلت الدارسين ينقسمون إلى قسمين بين مؤيد بوجود نظام وترتيب ومعارض ينفي هذا النظام والترتيب، وسنعرض في هذا العنصر للرأي الأول مع الاعتماد على نصوص أصلية من كتاب سيويه.

في عرض أبواب الكتاب حكمة وتنظيم، حيث بدأ سيويه كتابه بالبَاب الأول المعنون بـ "هذا علم ما الكلم من العربية"، لبيان أنواع الكلمات في نظام اللغة العربية، والتي هي اسم وفعل وحرف، وفي هذا حسن بديهة ومنطق، إذ لا يمكن أن نتحدّث عن نظام الجملة من الناحية النحوية إذا لم نعرف ما هي طبيعة الكلمات التي نبني بها الجملة، وهذا التقسيم وإن لم ينفرد به سيويه وحده - إذ هناك من سبقه إلى ذلك - فهو يشير إلى المنهج الوصفي التحليلي في دراسات النحاة، إذ بعد أن اطّلع صاحب الكتاب على نصوص العربية من مصادرها المختلفة، توصّل إلى أنّ أنواع الكلم التي تجري على الألسنة وبها تتشكّل الخطابات، ثلاثة، فبيّن طبيعة الاسم بالتمثيل له، وحدّد أنواع الفعل بالتمثيل، وعرف الحرف وأعطى له أمثلة.

بعد ذلك تطرّق إلى باب "هذا باب مجاري أواخر الكلم من العربية"، وكأنّه يعقد بينه وبين الذي سبقه برابطة، ترك للقارئ أمر استنتاجها.

وحكمة سيويه في الرّبط بين البابين هو حصول المعرفة لديه بقوانين وقواعد تشكّل وارتباط كل من الاسم والفعل والحرف مع بعضهما البعض عند ائتلافهما في شكل جملة، ومن قوانين التشكّل المستنبطة هي قوانين العامل، إذ يؤثّر بعضها في بعض. لذا راح يستطرد في الباب الذي يليه عن ذلك الأثر الظاهر على أواخر الكلمات وكيف يجري

في العربية، ويَبَيّن أن سبب تأثر الكلم فيما بينها هو بفعل العامل الذي هو إما اسم أو فعل أو حرف. ويعد علي التّجدي في كتابه "سيبويه إمام النّحاة" من المحدثين الذين تحدّثوا عن الأسس التي وفقها ربّبت أبواب الكتاب، وأكّد على اتّخاذ قانون العامل أساساً في ذلك⁴، واعتبر أن حديث سيبويه عن الأبواب الأولى، كباب "علم ما الكلم من العربية"⁵ وباب "المسند والمسند إليه"⁶، وباب "اللفظ للمعاني"⁷، وباب "ما يكون في اللفظ من الأعراض"⁸، وباب "الاستقامة من الكلام و الإحالة"⁹، وباب "ما يحمل الشّعْر"¹⁰؛ هذه الأبواب من الممهّدات، أمّا "باب أقسام الكلمة و باب الإعراب والبناء"، فيمثّلان مدخلاً لأبواب النّحو التالية على حسب رأي التّجدي¹¹، والذي نفهمه من تركيزه على تبيان عبقرية سيبويه في هذا التّرتيب، أنه ليس من محض الصدفة، وفي هذا منطق وحكمة، وهو الذي يتبيّن فعلاً لأي متصفّح لأبواب الكتاب.

فبعد أن عرض سيبويه باب "بجاري أواخر الكلم من العربيّة"، أردفه "باب المسند والمسند إليه"، وهذا إدراك أن الجملة قسمان: اسمية وفعلية، وهو ما يبيّن التّرتيب الذي اعتمده في باقي الأبواب التي هي على صلة بالنّحو مباشرة، كباب "الفاعل"¹²، وفي هذا إعلان على البدء في تحرير الأحكام النحويّة المتعلّقة بأوّل عنصر رئيسي في الجملة الفعلية، وهو الفاعل أي المسند إليه فيها، تليه الأبواب التي يشرح فيها أنماط الجملة الفعلية وأحوالها بالنظر إلى نوع الفعل من حيث التعدّي واللزوم، فبدأ بالتمط الأوّل الذي يأتي فيه الفعل لازماً، وسماه "هذا باب الفاعل الذي لم يتعدّه فعله إلى مفعول"¹³، وتلت الأبواب الأخرى التي تُفصّل في أنواع الفعل المتعدّي المبني للمعلوم، ثم الفعل المبني للمجهول بأنواعه حسب تعدّيه لعدد المفاعيل¹⁴، تحت مصطلح "باب المفعول الذي يتعدّاه فعله إلى مفعول".

وأوضح التّجدي أن ترتيب الأبواب النحوية جميعها كان على أساس العامل لا على نسق المعمولات، سواء في الأحكام المتعلقة بعناصر الجملة الفعلية أو المتعلقة بعناصر الجملة الاسمية؛ فبعد حديث صاحب الكتاب على كل أنواع الأفعال (كما ذكرنا سابقاً)، وتأثيرها في معمولاتها من جهة النّصب، وتطرّقه إلى قضية اشتغالها وتنازعها، وإغائها، وتامها، ونقصاتها، وحذفها وذكرها، وقضيّة إعمال المصدر والمشتقّات وأسماء الأفعال، وتحدّثه عن عامل الجرّ وتأثيره في الاسم بعده، وتبيّة التّوابع في ذلك، كالنعت والمنعوت، والبدل والمبدل منه، بعد كلّ ذلك نجد سيبويه يتطرّق إلى الجملة الاسمية، في حديثه عن الابتداء ونواسخه، واستطرد في الأدوات التي تجري على شبه منها في العمل¹⁵. ونستشهد بالأبواب التي ذكرها سيبويه على

الترتيب في دراسته لعناصر الجملة الاسمية (هذا باب الابتداء، هذا باب ما يقع موقع الاسم المبتدأ ويسدّ مسدّه، هذا باب من الابتداء يضمّر فيه ما المبنيّ على الابتداء، هذا باب يكون المبتدأ فيه مضمرا ويكون المبنيّ عليه مظهرا، هذا باب الحروف الخمسة التي تعمل فيما بعدها كعمل الفعل في ما بعده) ¹⁶.

وهناك من الباحثين من يرى أن الكتاب عُقد ترتيب موضوعاته بحسب الوظيفة النحوية للكلمة، فهي تقع مبتدأ وتقع فاعلا وخبرا وحالا ومفاعيل، وأشهر مناهج التأليف في كتب النحو العربي ¹⁷ وهو شأن كل مؤلفات النحو في العصور الأولى

والطريقة التي اعتمدها سيبويه في ترتيب الأبواب هي أشبه بالفهارس؛ «إذ يجمع عنوانات المباحث المتشابهة في باب واحد، يجعله بمثابة الفهرس لها، ثم يعود فيتحدّث عنها، ويفصّل في أحكامها، بابا، فهرس للفعل وما يشبهه، وفهرس للمنصوبات، وفهرس للتوابع، وفهرس للضمائر، وهو حين يفصّل الكلام على موضوعات الفهارس لا يقتصر عليها، ولكنه يستطرد منها إلى غيرها، في كثير من الأحيان، وتختلف الفهارس في الطول والقصر، لتفاوت أنواع المباحث المتماثلة في القلّة والكثرة» ¹⁸.

ونمّثل لفكرة الفهارس التي لفتت انتباه علي النجدي، والتي تكاد تغطّي كل أبواب الكتاب، بباب الاستثناء، إذ يذكر العنوان العام الذي يمثّل المدخل الأساس أو العتبة لهذا الموضوع، ثم تأتي بقيّة الأبواب المفصّلة (هذا باب الاستثناء، هذا باب ما يكون استثناء بإلاّ، هذا باب ما يكون المستثنى فيه بدلا ممّا نفى عنه ما أدخل فيه، هذا باب ما حمل على موضع العامل في الاسم والاسم لا على عمل في الاسم ولكن الاسم وما عمل فيه في موضع اسم مرفوع أو منصوب، هذا باب النّصب فيما يكون مستثنى مبدلا، هذا باب يختار فيه النّصب لأنّ الآخر ليس من نوع الأوّل، هذا باب ما لا يكون إلّا على معنى "ولكن"، هذا باب ما تكون فيه "أنّ" و"أنّ" مع صلتها بمنزلة غيرهما من الأسماء، هذا باب لا يكون فيه المستثنى إلّا نصّا، هذا باب ما يكون فيه "إلاّ" وما بعده وصفا بمنزلة "مثل" و"غير"...) ¹⁹.

4. الآراء المنافية لوجود حكمة في تنظيم أبواب الكتاب:

وما يعاب على صاحب الكتاب، هو أنّ هذه الفهارس المترابطة في شكل سلسلة من الموضوعات المتّصلة ذات اللّحمة الواحدة قد تتخلّلها بعض الأبواب في غير محلّها، حتى أنّ القارئ يحسّ وكأنّ هناك خلطا في الموضوعات النحوية، كأنّ يقدّم بعض العناصر الثّانويّة للجملة الفعلية أو الاسمية على العناصر الرئيسيّة دون مراعاة الترتيب لها في أبوابها الأصليّة، وتفسير هذا لعلّه راجع إلى أنّ هذه الأبواب التي عُدِل

عن أصل ترتيبها في مواضعها المنوطة بها، قد تربطها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالباب الذي أرفقت ضمن عناصره.

ونمّثل لذلك بذكره عناوين أبواب تتضمن الحديث عن بعض أحكام الخبر من جهة النّصب ضمن أبواب تتحدّث عن أحكام الصفة في أحوالها مرفوعة ومجرورة ومنصوبة وحكم الحال أيضا (هذا باب ما يرتفع فيه الخبر لأنه مبنيّ على مبتدأ أو ينتصب فيه لأنّه حال لمعروف مبنيّ على مبتدأ)²⁰.

وربّما إدراج أبواب في غير محلّها في الكتاب هو ما جعل بعض القدماء ينفون عنه الجري على نسق واحد أو معيّن²¹، وكان للمحدثين نظرة مشابّهة لأنّ ترتيبه غير معتاد ككتب النحو الأخرى التي تبدو أكثر تبويبا وتنظيما، فهذا أحد المحدثين يقول: «قلت لأحد أساتذتي، لقد رأيت كتابا في النحو لم ألف صنيعه، فقال لي: هل قدم النحو فيه متناثرا؟ قلت: نعم، قال: ذلك كتاب سيوييه، إنّه يبدو وكأنّه متناثر لأنّ الدارسين تعودوا على ترتيب معيّن، يصنّف الأبواب بعد الكلام عن الإعراب والبناء، والتنكير والتعريف، المرفوعات والمنصوبات، والمجرورات، أما في كتاب سيوييه فنلاحظ كثرة الأبواب، وعدم وجود الفصول، وطول العناوين، والغموض في العلاقة بين العنوان والمّتن»²².

أمّا الأديب أحمد أحمد بدوي فيرى أن الكتاب «لا يسير في ترتيب أبوابه على الطريقة المنطقية الدقيقة، فيقدم أبوابا من حقّها أن تتأخّر، ويؤخّر أبوابا من حقّها أن تتقدم، ويضع فصولا في غير موضعها الطبيعي»²³، وقد أعطى مثالا عن باب المسند والمُسند إليه الذي ذكر فيما تلاه باب الفاعل ولم يذكر المبتدأ وغيره.

ومن المحدثين الذين عاجلوا مسألة الخلط في أبواب الكتاب وعدم جري بعض أبوابه على نسق واحد نجد خديجة الحديثي حيث رأت أن ترتيب أبوابه يختلف عن منهج كتب المتأخرين فهو لا يذكر المرفوعات على حدة والمنصوبات على حدة، وإنّما يخلط بعضها بالآخر، كما أنه لا يسير في ترتيب أبوابه ترتيبا منطقيا سليما إذ يقدّم أبوابا من حقّها أن تتأخّر ويؤخّر أبوابا من حقّها أن تتقدّم، ويضع فصولا في غير موضعها، وقد فضّلت الباحثة في مظاهر هذا الخلط مستدلة من الكتاب، كما أرجعت أسباب طول عناوين الأبواب وغموض بعضها إلى عدم استقرار المصطلحات النحوية في عهد سيوييه، فقد يعقد لموضوع من موضوعات النحو أكثر من باب أو عنوان كباب التمييز مثلا لعدم استقرار مفهومه لدى سيوييه.²⁴

وأرجعت الحديثي أسباب الخلط في كثير من أبواب الكتاب إلى أحد أمرين:²⁵

الأول: أن ترتيب النحو النهائي لم يكن قد تمّ في زمانه، ولم تحدّد المصطلحات بعد، أو يعرف معناها الدقيق، يضاف إلى ذلك أنّ سيويه شقّ طريقا جديدا لم يذللّه أحد قبله.

والثاني: أن سيويه لم يضع كتابه الوضع الأخير وبصورته النهائية، وإنما كان حتّى أواخر أيامه يزيد وينقص فيه، بدليل أنّه كان خاليا من مقدّمة أو خاتمة بالمعنى الذي فهمه المتأخرون.

ورغم الآراء المناقضة لمسألة وجود تنظيم وحكمة في ترتيب أبواب الكتاب إلا أنّنا لاحظنا اتفاق الآراء حول وجود منهج علمي في تحليل سيويه للمسائل اللغوية، «أمّا مسألة التنظيم التي عدّها العلماء سمة من سمات العلم أو التفكير العلمي، فمن الواضح أنّ كتاب سيويه منذ بدايته حتّى نهايته يسير على وفق ترتيب وتنظيم معيّن اختطّه سيويه دون سابقة في ترتيب أبوابه ومادته العلمية، وأهمّ ما يمكن ذكره في هذا الأمر أنّه جعل كتابه على قسمين، الأول: أجمل فيه كل ما يتعلق بالمسائل النحوية، في حين أفرد القسم الثاني للمسائل الصرفية والصوتية»²⁶.

4. خاتمة:

وفي خاتمة هذا البحث ، نخرج بنتيجة وهي أن لسيويه حكمة وحسن بصيرة في تنظيمه لأبواب الكتاب بالشكل الذي جاء عليه، وأما ما جاء فيه من هفوات فقد يكون من عمل النساخ، أو نتيجة لعدم مراجعة نهائية من قبل سيويه، إذ توفي وهو في نفسه تحليل العديد من المسائل اللغوية وإعادة ترتيبها، والدليل أنّ المؤلفات التي جاءت بعده كانت أكثر تنظيما وهي المهمة التي أكملها تلاميذته ومن جاء بعدهم.

5. الهوامش والإحالات

- 1 ابن النديم: الفهرست، ت إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، ص: 74.
- 2 علي النجدي ناصف: سيبويه إمام النحويين، عالم الكتب، القاهرة، ط2، دت، ص128.
- 3 محمد مختار ولد أباه: تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب،
- 4 ينظر علي النجدي ناصف: مرجع سابق، ص175 وما بعدها.
- 5 الكتاب، 40/1.
- 6 المصدر نفسه، 48/1.
- 7 المصدر نفسه، 49/1.
- 8 المصدر نفسه، 50/1.
- 9 المصدر نفسه، 52/1.
- 10 المصدر نفسه، 53/1.
- 11 ينظر علي النجدي ناصف: مرجع سابق، ص176.
- 12 الكتاب، 66/1.
- 13 المصدر نفسه، 67/1.
- 14 ينظر الكتاب، ج1، ص71 وما بعدها.
- 15 ينظر محمد المختار ولد أباه، مرجع سابق، ص84.
- 16 الكتاب، 125/2 وما بعدها.
- 17 ينظر غادة غازي عبد المجيد، نوفل إسماعيل صالح: منهج سيبويه في ترتيب الأبواب النحوية في الكتاب، مجلة ديالي، جامعة ديالي، ع68، 2015، ص: 374.
- 18 علي النجدي ناصف: مرجع سابق، ص176.
- 19 ينظر الكتاب، 2/ 322 وما بعدها.
- 20 المصدر نفسه، 83/2.
- 21 كشف الظنون، 2/ 281 نقلا عن النجدي
- 22 محمد المختار ولد أباه، مرجع سابق، ص83.

- 23 أحمد أحمد بدوي: سيويه حياته وكتابه، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، نسخة 2019، ص: 28.
- 24 خديجة الحديثي: أبنية الصرف في كتاب سيويه، مكتبة النهضة، بغداد، ط1، 1385-1965، ص: 66-69.
- 25 المرجع نفسه، ص: 69.
- 26 هدى أحمد عبد الله الحمزي: القيمة العلمية لكتاب سيويه، مجلة الأندلس للعلوم الاجتماعية والإنسانية، م7، ع34، يوليو، سبتمبر 2020، ص224.